سعد زغلول

زعيم الأمة

بقلم : محمود عوض

بريشة : مصطفى حسين

الطبعة الثالثة

دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عوض، محمود
سعد زغلول زعيم الأمة / بقلم محمود عوض،
بريشة مصطفى حسين
- ط ٠٣ — القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٦
٢٠ ص ؛ ٢٨ سم — (نوابغ العرب،٤).
تدمك ٨ — ٧٠١٤— ٠٢— ٩٧٧
١ — السياسيون — المصريون، ٩٢٣,٢٦٢
٢ — سعد زغلول، سعد بن ابراهيم ١٨٦٠ - ١٩٢٧
(أ) حسين ، مصطفى (رسام)
(ب) العنوان

رقم الإيداع ٢٢٥٦٨/ ٢٠٠٦ ٧/٢٠٠٦/٦٤

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة - ج . م . ع
هاتف: ٥٧٧٧٠٧٧ - فاكس: ٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

سعد زغلول

عندما تذكر اسم سعد زغلول . . . تبدو على الوجوه علامات الصرامة والحماس والفخر والكبرياء والعزة والجدية . . وكأنك ستحدثهم عن رجل لم يكن فى أى وقت إنسانًا من لحم ودم . . ولكنه جبل من الصلابة والقوة والصخور والجرانيت !

ولكن سعد زغلول كان إنسانًا من لحم ودم .

والأكثر من ذلك أنه كان طفلا عاديًا من أسرة عادية . . تعانى مما يعانى منه المصريون جميعًا فى ذلك الزمن : الفقر والجهل والمرض . . وسطوة التدخل الأجنبى .

وعندما ولد سعد . . كان أقصى ما يتمناه له أبوه « إبراهيم زغلول » هو أن يكون ابنه الجديد أحسن حظًا من أولاده الثمانية السابقين .

وكانت هذه هى أمنية سيدات الأسرة . . اللاتى تجمعن حول الوليد فى سرير أمه . . يدعون له بأن يكون بشير سعادة للأسرة .

وفى تلك اللحظة لم يكن الجميع يعلم أن القدر قد قدر أن يجعل « سعد » بشيراً بالثورة . . . فى أمته كلها !

ولد سعد زغلول فى سنة ١٨٦٠، من أسرة عادية تعيش فى ريف مصر ، بقرية ، « أبيانة » مركز « فوة ». وقد رزق أبوه بعد ذلك ولداً آخر أسماه « فتحى زغلول ». . ولكن الأب والأم كانا يشتركان فى الإحساس بأن مستقبلاً باهراً ينتظر ابنهما سعداً خاصّة !

إن المستقبل الباهر فى نظر أى أسرة ريفية فى ذلك الوقت ، لم يكن يزيد على حفظ القرآن وتعلم القراءة والكتابة والحساب ، ثم العمل فقيهًا أو مدرسًا . وفى أحسن الأحوال ، كان الأبوان يتمنيان لابنهما أن يصبح عمدة القرية ! ومنصب العمدة كان فى ذلك الوقت أهم وأعلى منصب فى الريف .

ولكن الأب مات بغير أن يرى ابنه وهو « عمدة » !

لقد توفى الأب ، وعمر سعد خمس سنوات . ورفضت الأم الجميلة كل عروض الزواج التى تلقتها بعد ذلك لأنها صممت على التفرغ لتربية أولادها ، لقد أصبحت تقوم فى حياة الطفل الصغير سعد بدور الأم والأب معاً .. وسوف يكون حب سعد لأمه عاملا من العوامل الرئيسية التى ستؤثر فى تفكيره بعد ذلك بسنوات طويلة ، وتجعله يؤمن بقضية المرأة ، عندما قال هو نفسه بعد ذلك : أمى هى التى جعلتنى أومن بتحرير المرأة .

***

لقد دخل الطفل الصغير سعد كتاب القرية . . وعندما ظهر تفوقه مبكراً أرسلته أسرته إلى القاهرة لكى يدرس فى الأزهر .

كان الأزهر هو قمة التعليم فى مصر فى ذلك العصر .

وكان التعليم فى الأزهر حراً بأفضل معانى الحرية .

إن النظام الذى كان متبعاً فى تلك الجامعة الأزهرية . . كان يعتمد على أن يتخذ كل شيخ لنفسه ولتلاميذه ركناً ليلقى فيه الدرس الذى تخصص به . وكان كل تلميذ حراً فى اختيار الشيخ الذى يدرس عليه . وكان يحدث أن يلقى درس النحو أو الفقه أو البلاغة مثلا ثلاثة علماء أو أربعة فى وقت واحد ، وفى أركان مختلفة ، والتلميذ حر فى أن يتلقى الدرس على أى عالم منهم .

واختار الشاب سعد زغلول لنفسه أستاذاً ، أصبح معروفاً بعد ذلك بأنه لا نظير له . . لقد اختار أن يدرس على جمال الدين الأفغانى .

إن العالم العربى يعد الأفغانى اليوم مصلحاً عظيماً ، ومفكراً ثائراً ، لكنه فى ذلك العصر كان يواجه – بسبب أفكاره الثائرة – خصوماً كثيرين ، على رأسهم الحكومة نفسها . التى رأت فى أفكاره تحريضاً للشعب على الثورة ضد الفساد والاحتلال والديكتاتورية .

وبعد فترة قصيرة أصدرت الحكومة قراراً بإبعاد جمال الدين الأفغانى عن مصر .

لقد نجح سعد زغلول فى دراسته ، ونفى الأفغانى إلى خارج مصر . . ولكن قبل نفيه كان سعد قد تعلم منه أشياء كثيرة . . . أشياء على رأسها : الثورة . الثورة ضد الظلم . ضد الطغيان . ضد الفساد . ضد الاحتلال .

انتهى سعد من الدراسة . . لكى يبدأ عمله فى الوظيفة .

لقد عمل كاتباً فى جريدة « الوقائع المصرية » بمرتب بلغ ثمانية جنيهات شهرياً .

كانت « الوقائع المصرية » هى الجريدة التى تصدرها الحكومة ويرأس تحريرها الأستاذ الإمام محمد عبده ، ومن هنا تأثر سعد زغلول بشخصية أخرى ثائرة – بعد جمال الدين الأفغانى – هى شخصية محمد عبده .

إن محمد عبده كان شيخًا أزهريًّا فاضلاً ، يؤمن بأن الدين يسر لا عسر ، وبأن على علماء الإسلام أن يتطوروا ويلاحقوا الحضارة الحديثة ، لكى تصبح هذه الحضارة سلاحًا فى أيديهم ، يعمل لمصلحة شعوبهم ، بدلا من أن تكون سلاحًا فى يد أوربا ضدهم ، لهذا كان يؤمن بضرورة أن يبدأ الإصلاح فى الأزهر وفى عقول شيوخ الأزهر .

ومن « الوقائع المصرية » انتقل سعد إلى وظائف أخرى مختلفة فى وزارة الداخلية ، ثم قلم قضايا الحكومة . وفى النهاية خرج من الوظيفة . . إلى السجن !

لقد قام الضابط المصرى أحمد عرابى بثورته المشهورة فى سنة ١٨٨٢ ، وكان سعد واحداً من الذين تحمسوا لها وساهموا فيها . . .

وبعد احتلال بريطانيا مصر فى سنة ١٨٨٢ حكم على كثيرين بالسجن ، ومن بينهم سعد زغلول ، الذى ظل سجينًا بضعة أشهر .

وعندما خرج سعد من السجن قرر الاشتغال بالمحاماة .

***

استطاع سعد خلال عمله كمحام ، أن يعلم نفسه اللغة الفرنسية ، وتقدم لامتحان الحقوق فى باريس فحصل على شهادة الليسانس . وبعد أن عاد يمارس عمله كمحام بفترة بسيطة ، تم ترشيحه لوظيفة قاض بمحكمة الاستئناف ، فكان أول محام يحصل على هذا المركز ، وكان ذلك فى سنة ١٨٩٢ ، وبعدها بسنوات قال عنه المسيو دى هولتز ، أكبر المستشارين سنًّا ، عندما اختير سعد لمنصب الوزير :

« ربما خطر ببالك عند ما تركت المحاماة إلى القضاء أن ذلك كان شرفًا لك . نعم إنه كان شرفًا ، ولكنه شرف لنا معشر القضاة . . شعرنا به عقب وجودك بيننا ، إذ تمكنا من أن ننظر عن كثب إلى أخلاقك ومعارفك فنقدرك حق قدرك » .

وكان لاختيار القاضى سعد زغلول لمنصب الوزارة قصة غريبة :

لقد كان اللورد كرومر هو المندوب السامى البريطانى فى مصر . ونظراً لأنه يمثل الاحتلال البريطانى ، وسط شعب يكره هذا الاحتلال ، فإنه أراد أن يعطى الحكومة — التى يكرهها الشعب — صبغة شعبية ، فأوصى بتعيين سعد زغلول وزيراً للمعارف ، لأن سعداً معروف بنزعته الوطنية بين الناس ، وقد قال عنه كرومر قبيل مغادرته مصر : « إن لم أخطئ فسيكون لزغلول بك ناظر المعارف الحالى مستقبل عظيم النفع للشعب . ففيه جميع الصفات الضرورية لخدمة بلده . . أمين قدير لديه من الشجاعة ما يتفق ومعتقداته » .

إن المندوب السامى البريطانى كان يأمل بذلك أن يكسب سعد زغلول إلى صف الاحتلال ، وأن يؤدى منصب الوزارة إلى تهدئة خواطر سعد ، وتخفيف رأيه فى الاحتلال البريطانى . .

وكان لا بد أن تمر سنوات طويلة ، قبل أن يثبت خطأ هذا الرأى .

***

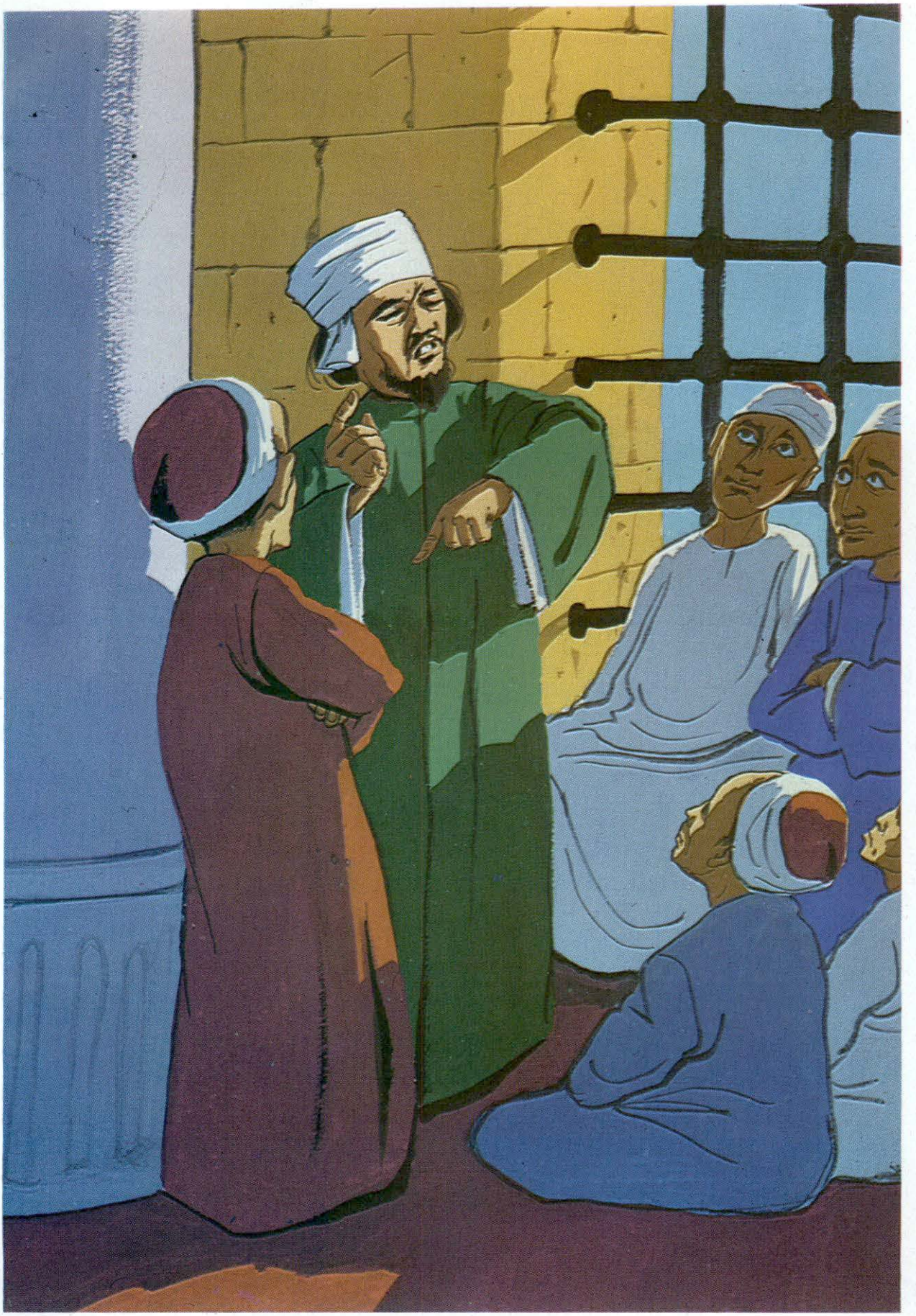

شغل سعد زغلول منصب وزير المعارف فى سنة ١٩٠٦ .

وفى سنة ١٩١١ أصبح وزيراً للحقانية (العدل) .

وخلال عمله الأخير وقعت أزمة عنيفة بين سعد زغلول من ناحية . . وكل من الخديو عباس حلمى واللورد كتشنر المندوب السامى البريطانى (الذى حل محل كرومر) من ناحية أخرى .

لقد اكتشف الوزير سعد ، أن الوصى على أملاك إحدى الأميرات « مرتش » ، وبالإضافة إلى ذلك يتدخل فى شئون القضاء .

فأصدر الوزير قراراً بالتحقيق مع هذا الوصى . .

بعد قليل فوجئ سعد زغلول بالمستشار الإنجليزى لوزارة الحقانية يدخل عليه معترضاً وهو يقول : ألا تعلم أن هذا الوصى قد عينه الخديو . . وأنه فى الوقت نفسه صديق شخصى للمندوب السامى البريطانى ؟

رد سعد : أعلم .

قال المستشار الإنجليزى . ألا تعلم أنه يقوم أيضاً بمصاحبة المندوب السامى فى رحلات الصيد والنزهة التى يقوم بها ؟

رد سعد : أعلم .

سأله المستشار : إذن كيف تطلب التحقيق معه ؟ إنك بذلك تواجه الخديو والمندوب السامى البريطانى معاً ؟

رد سعد : نعم ، أعلم ذلك . ولكن دعنى أسألك بدورى . . هل الحق معى أولا ؟

رد المستشار : نعم . ولكن القوة ليست معك .

قال سعد : الحق فوق القوة !

ولكن الحق لم يكن — بعد — قد أصبح فوق القوة !

لقد أدى تدخل الخديو ، وتدخل المندوب السامى البريطانى ، إلى منع إحالة الوصى المتهم إلى التحقيق ، وعندما هدد سعد — كوزير للحقانية — بالاستقالة . . . قبل الخديو استقالته .

وعندما خرج سعد مستقيلا من مكتبه تنفس الصعداء .

لقد خسر كرسى الوزارة . . . ولكنه كسب راحة الضمير !

* * *

خاض سعد زغلول فى حياته العامة معارك كثيرة دفاعاً عما يؤمن بأنه حق .

لقد كان يؤمن بأن التعليم الجامعى ضرورة هامة لمصر ، فضلا عن أنه سلاح فعال للنهوض بوعى الأمة فى صراعها ضد المحتل الأجنبى . لهذا صدر من منزله المنشور الذى يدعو فيه — مع غيره من المثقفين — إلى إنشاء الجامعة المصرية سنة ١٩٠٦ .

وكان يؤمن بضرورة تحرير المرأة .

لهذا شجع قاسم أمين على إصدار كتابه « تحرير المرأة » ، الذى دعا فيه المرأة المصرية إلى خلع الحجاب ، ودعا إلى المساواة بينها وبين الرجل فى فرص التعليم .

وعندما عدّ الكبراء فى مصر وقتها أن دعوة قاسم أمين دعوة إلى الإلحاد والفسق والخروج على الدين ، وعندما اتهموه بالفجور وأغلقوا بيوتهم فى وجهه ... ظل بيت سعد زغلول مفتوحاً أمام المفكر الجرىء قاسم أمين .

وكان يؤمن بأن رأى الشعب أقوى من كل سلطة .

لهذا قام بعد استقالته من الوزارة – بترشيح نفسه فى انتخابات الجمعية التشريعية (البرلمان) ، لكى يكون نائباً عن الشعب فى مواجهة سلطات الاحتلال . وعندما بدأ القصر ، وسلطات الاحتلال ، يحاربانه . . رشح سعد نفسه فى دائرتين انتخابيتين . . بدلا من دائرة واحدة . وكانت النتيجة مفاجأة للجميع : لقد فاز سعد بالأغلبية فى الدائرتين !

وفوجئ المندوب السامى البريطانى ، والخديو عباس ، بأن الرجل الذى أخرجوه من الوزارة قد عاد إليهم ، بأصوات الشعب هذه المرة . . لكى يصبح وكيلا للجمعية التشريعية !

لقد بدأ الصدام بين سعد ، والسلطة الطاغية والاحتلال العسكرى . . يصبح صريحاً وواضحاً .

وعند ما بدأت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ ، بدا أنه لا بد أن تنقضى سنوات هذه الحرب ، قبل أن يتحول الصدام بين سعد والاحتلال إلى ثورة كبرى – أكبر ثورة شعبية عرفها الشرق الأوسط .

* * *

بدأت القصة كلها بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بيومين اثنين .

لقد ذهب سعد مع اثنين من زملائه فى الجمعية التشريعية – هما عبد العزيز فهمى ، وعلى شعراوى – لمقابلة المندوب السامى البريطانى (السير ريجنالد ونجت) طالبين التصريح لهم بالسفر إلى لندن لعرض مطالب الشعب المصرى فى الاستقلال على الحكومة البريطانية .

رفض المندوب السامى البريطانى الطلب ، وقال لهم : إن على المصريين أن يشكروا بريطانيا العظمى . . لا أن يطلبوا منها الاستقلال !

قال سعد : لقد انتهت الحرب ، ويجب أن تنتهى أيضاً الحماية التى أعلنتها بريطانيا على مصر بحجة الحرب !

قال المندوب السامى : يجب ألا تتعجلوا . . .

ردّ سعد زغلول : هذه العبارة مبهمة ، ولا أفهم المقصود منها . .

قال المندوب السامى : دعنى أسألكم . . ماهى أغراض المصريين ؟ ألا يحسن أن تكونوا أصدقاء بريطانيا ؟

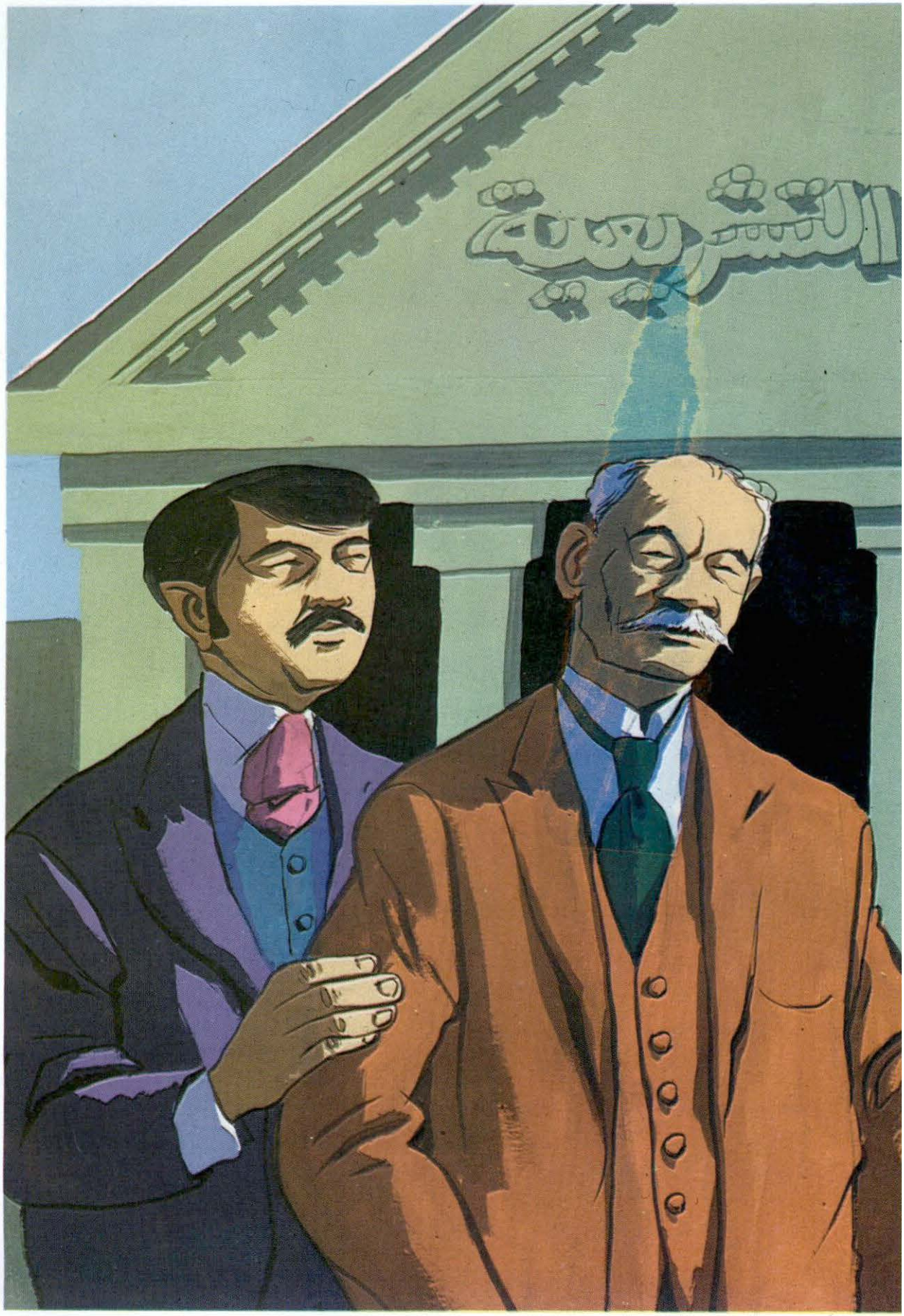

رد على شعراوى : أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر . . لا صداقة العبد للحر .

قال المندوب السامى فى استغراب شديد : إذن أنتم تطلبون الاستقلال ؟

رد سعد زغلول : نعم . نحن نطلب الاستقلال ، ونحن أهل له .

ويومها خرج الثلاثة من دار المندوب السامى ، لكى يبدءوا عملاً عظيماً من أجل بلدهم .

إن المندوب السامى قال لرئيس الوزراء : بأى صفة يتحدث هؤلاء ؟

وتلقى المندوب السامى إجابة عملية عن سؤاله . لقد جمع المصريون فى ساعات آلاف التوكيلات يعلنون فيها تفويضهم الوفد الذى شكله سعد زغلول فى التحدث بالنيابة عنهم .

وعندما طلب الوفد المصرى — برياسة سعد زغلول — التصريح لهم رسمياً بالسفر ، رد المندوب السامى بالرفض .

وبدأ الشعب يغلى . . . وبدأ صوت سعد زغلول يرتفع .

وفى يوم الخميس ٦ مارس سنة ١٩١٩ وقف القائد البريطانى فى مصر أمام مركز القيادة البريطانية بميدان سليمان بالقاهرة يتلو على سعد زغلول ورفاقه إنذاراً مكتوباً بعدم التحدث فى مسألة الحماية أو الاستقلال .

وعندما هم سعد زغلول بالتعقيب رد القائد الإنجليزى متعجرفاً : لا مناقشة .

وبعد يومين اثنين ألقى الإنجليز القبض على سعد زغلول ، وعلى ثلاثة من زملائه ، وحملتهم السيارة العسكرية الإنجليزية إلى مكان لا يعلمونه ، وكان سعد زغلول يقول لرفاقه : تشجعوا .

وفى اليوم التالى مباشرة ، كانت الباخرة تغادر بورسعيد ، حاملة سعداً وزملاءه الثلاثة ، بعد أن صدر قرار من المندوب السامى البريطانى بنفيهم إلى جزيرة مالطة ، وسط حراسة مسلحة .

وفى الوقت الذى تحركت فيه الباخرة من بورسعيد ، تحركت فى مصر ثورة كبرى لم تعرفها من قبل .

وبرغم أن الإنجليز منعوا الصحف من نشر خبر اعتقال سعد زغلول ورفاقه . . انتشر الخبر بين صفوف الشعب بسرعة البرق .

وخلال يومين بدأت حركة إضرابات واسعة من طلبة المدارس العليا والمحامين والموظفين وعمال السكك الحديدية . لقد أغلقت المتاجر أبوابها .. وتعطلت المحاكم .. وقرر الشعب الأعزل من السلاح ، أن يقف فى وجه جنود الإمبراطورية البريطانية المدججين بالسلاح .

وعندما بدأ الشعب يقطع خطوط المواصلات الحديدية ، حتى لا يتسرب الجنود الإنجليز إلى الريف ، قرر الإنجليز إعدام كل من يتعرض لخطوط المواصلات .

وعندما سخر الناس من هذا التهديد ، قرر الإنجليز إجبار القرى الواقعة بجوار السكك الحديدية على دفع نفقات أى تلف يحدث ، ودفع التعويضات اللازمة .

وعندما أخفق هذا التهديد كذلك أصدر الإنجليز بلاغاً يقول : « كل حادث جديد من حوادث تدمير محطات السكك الحديدية أو المهمات الحديدية . . يعاقب عليه بإحراق القرية التى هى أقرب من غيرها إلى مكان التدمير . . . وهذا إنذار » .

ولكن الشعب الشجاع رفض كل إنذار .

لقد أصبح كل مصرىّ فى حالة ثورة : موظفو الحكومة . . عمال الترام . . تلاميذ المدارس . . فنانو المسرح . . طلبة الأزهر . . فلاحو الريف . .

إن الشعب أدرك أن الاحتلال جاء إلى مصر بالقوة . . ولن يخرج منها بغير القوة . لهذا اشترك الشعب بجميع طبقاته فى الثورة ضد الإنجليز . . من أجل هدف واحد هو : الاستقلال .

وخلال أيام قليلة انتشرت المظاهرات فى مصر كلها .

فى القاهرة خرج الشعب كله فى مظاهرات احتجاج ضد الإنجليز . ونزل الجنود الإنجليز إلى الشوارع لضرب المظاهرات بالرصاص . . إلى حد أنهم حسبوا أن الخارجين من صلاة الجمعة فى مسجد الحسين يشكلون إحدى المظاهرات الممنوعة .. فأمطروهم برصاص بنادقهم .

وبدأ القتلى يسقطون برصاص الإنجليز . . شهداء فى سبيل الثورة .

لقد كان أول شهيد فى المظاهرات طالباً جاء من المنصورة ليدرس فى القاهرة . وكان الشهيد الثانى طالباً آخر فى السنة الثالثة الثانوية ، لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً .

وبعدهما تتابع القتلى !

لقد خرجت المظاهرات من الأزهر ترفع شعار : الاستقلال التام .. أو الموت الزؤام .

وخرجت المظاهرات من المدارس تهتف : بلادى بلادى بلادى . . لك حبى وفؤادى .

وخرج الموظفون يرددون بعد إضرابهم : عشرين يوم راحوا علينا . . إن شالله ياخدوا عنينا . . بس المقصود . . . يبقى لنا وجود » .

وخرج التجار يهتفون : مصر جنة طول ما فيها أنت يا نيل . . عمر ابنك لم يعيش أبداً ذليل .

وخرج العمال يرددون : نحفظ كرامة شعبنا . . . بعمرنا ، بدمنا .

وخرجت السيدات المصريات يهتفن : اسلمى يا مصر ، إنى الفدا .

لقد خرج الجميع يواجهون رصاص الإنجليز ، وخرجت المرأة المصرية فى أول مظاهرة كبرى فى تاريخها . . . ترتدى الحجاب واليشمك والملابس السوداء . . . وفى يدها أعلام صغيرة . . لأنها تريد أن تشترك لأول مرة فى ثورة بلدها ضد الإنجليز .

لقد كان صوت الشعب أقوى من كل رصاص الإنجليز .

إن الإنجليز أطلقوا الرصاص ، ومنعوا التجول ، وهددوا بالإعدام ، وطبقوا الأحكام العرفية ، وفتحوا السجون، وقبضوا على الآلاف ، وقتلوا المئات . . ولكن الثورة كانت أقوى من هذا كله .

كانت أول ثورة يشترك فيها المصريون جميعاً ، ابتداء من القاهرة . إلى أصغر قرية فى مصر .

فى المنصورة . . . سقط ١٩ قتيلا من الشعب فى مظاهرة واحدة . .

وفى رشيد . . اضطر الإنجليز إلى إرسال حامية هندية مسلحة لكى تقضى على المظاهرات . .

وفى كفر الشيخ . . . طلب الإنجليز من المأمور المصرى أن يقمع المظاهرات . . ففوجئوا بأن المأمور انضم إلى المظاهرات يتصدرها ضد الإنجليز .

وفى طنطا . . أخفقت الحامية الإنجليزية فى التصدى للشعب ، ونجح الشعب فى قطع خطوط المواصلات . . .

وفى زفتى . . . تألفت لجنة للثورة ، وأعلنت قيام الجمهورية . . واضطر الإنجليز إلى محاصرة المدينة بقوات المدفعية .

وفى المنيا . . . تألفت لجنة من الأهالى لإدارة المنطقة . . . وأعلنوا هم أيضاً الجمهورية .

وفى أسيوط . . . اضطر الإنجليز إلى استخدام الطائرات فى نجدة الجنود الإنجليز بالمدينة الثائرة .

لقد كانت كل مدينة فى مصر ثائرة ، كل مدينة ، وكل قرية . . . وكل رجل . . وكل امرأة . . الجميع اشتركوا وساهموا فى أول ثورة شعبية فى تاريخ مصر الحديث .

كان للثورة هدفان : الحصول على الاستقلال . . . والإفراج عن سعد زغلول ورفاقه . . .

كان الإنجليز هم أول من فاجأتهم الثورة !

لقد فاجأتهم نهضة الشعب كله كرجل واحد ، خلف هدف واحد ، ضد عدو واحد .

وأراد الإنجليز تهدئة الشعب الثائر .

فأفرجوا عن الزعماء المنفيين ، وقرروا إرسال لجنة إلى مصر برياسة وزير المستعمرات البريطانى اللورد ملنر للتفاوض مع أى مصرى غير سعد زغلول .

وقرر الشعب أن يقاطع لجنة التهدئة .

وعادت اللجنة إلى لندن . . . بدون أن تجد مصرياً واحداً يتفاوض معها ، فالجميع يقولون لها : سعد هو زعيمنا ، وهو الوحيد الذى يتفاوض باسمنا .

وعندما أفرج عن سعد ورفاقه ، سافروا فى العام التالى إلى لندن للتفاوض مع الحكومة البريطانية .

وتصور الإنجليز أنهم سيشترون الثورة ، ويشترون زعيم الثورة ، بمنصب يعرضونه عليه .

لقد ذهب إليه مندوب عن الحكومة البريطانية يخبره : ما دمت لا تنوى الخضوع . . . فإننا نخيرك بين أمرين : إما أن نعينك سلطاناً على مصر ، تحت الحماية البريطانية ، وإما أن تنفى إلى جزيرة سيشيل .

ولم يتردد سعد زغلول لحظة . . .

لقد قال للمندوب البريطانى . . . هيا بنا . . . إلى سيشيل !

***

هكذا نفى الإنجليز زعيم الأمة مرة ثانية ، إلى سيشيل هذه المرة ، ثم إلى جبل طارق .

ومرة أخرى تضطر إنجلترا ، تحت ضغط الشعب ، إلى الإفراج عنه فى ٤ أبريل سنة ١٩٢٣ . . .

وفى هذه المرة كان الاحتلال قد استفاد من الدرس !

لقد قرروا منح الشعب دستوراً ، وحياة نيابية ، وقرروا إلغاء الحماية ، وقرروا أن يكون مصر ملكيًّا ، على حين . يحكمون هم من خلف الستار . . وقرروا استدراج مصر فى مفاوضات لا تنتهى حول قضية الاستقلال .

***

وفى هذا كله كان سعد زغلول هو دائمًا : زعيم الأمة .

لقد كان زعيم الأمة يوم قاد الثورة .

وكان زعيم الأمة يوم عاد من المنفى .

وكان زعيم الأمة يوم أعطاه الشعب الأغلبية الساحقة فى الانتخابات الأولى ، والتى أصبح بعدها أول رئيس للوزراء بعد إلغاء الحماية .

وكان زعيم الأمة يوم اضطر إلى الاستقالة بعد حادث مقتل حاكم السودان الإنجليزى بالقاهرة فى نوفمبر ١٩٢٤ ، ويوم أعاده الشعب من جديد رئيسًا لمجلس النواب مرتين بعد استقالته . . .

ثم توفى سعد فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ ، فخرج الشعب كله فى جنازة زعيمه .

***

وبعد وفاته بأربع سنوات ، قال عنه الزعيم الهندى الكبير غاندى سنة ١٩٣١ : « لقد كان سعد زغلول أستاذى . قلدناه فى حركته الوطنية . قلدناه فى فكرة تأليف الحزب من طبقات . كلما اعتقل الإنجليز طبقة حلت محلها طبقة أخرى . ولكننا أخفقنا فى أمرين نجح فيهما سعد زغلول : أولهما توحيد الهندوس والمسلمين كما وحد سعد بين الأقباط والمسلمين ، وثانيهما إضراب الموظفين » .

وفى كتاب « لمحات من تاريخ العالم » قال عنه الزعيم الهندى الراحل « نهرو » .

« لمدة خمس وأربعين سنة ، عمل سعد زغلول من أجل حرية مصر . وأصبح بذلك قائد حركة الاستقلال . فقد كان بالفعل قائد مصر بدون منازع ، وكان محبوبًا من قبل الفلاحين . . أى الطبقة التى نشأ منها ، وقدوة من قبل الطبقة المتوسطة ، أى الطبقة التى كان ينتمى إليها . . ولكن الطبقة الأرستقراطية — طبقة الإقطاعيين — لم ترض عنه ولم تحبه » .

ولكن سعداً لم يكن يهتم بالطبقة الأرستقراطية .

كان يهتم أولا بالفلاح ذى الجلباب الأزرق ، الذى هو أغلبية الشعب المصرى ، وكان يقول عن الفلاحين أصحاب الجلاليب الزرقاء :

« إن هذه الجلاليب الزرقاء أشرف من ملابس التشريفة التى يرتديها الوزراء . إنها علم الثورة الجديد . إنها بداية عصر يسود فيه الفلاح وينتهى فيه باشوات الأتراك » .

وقد مات سعد ، بعد أن حقق المعجزة : ثورة الشعب كله ضد الاحتلال . ثورة الفلاحين ضد مدافع الإنجليز .